شعر المنامات
والأشعار المنسوبة لغير الإنس

|

إعداد

د. الأصم بشير التوم

الأستاذ المساعد بجامعة الخرطوم، كلية التربية، قسم اللغة العربية.

Arabic *Manama* [Dream Vision] Poems and Poems Attributed to Non-humans

Dr. Al-Asam Bashir Al-Toum - Assistant Professor at the University of Khartoum، Faculty of Education، Department of Arabic Language.

مستخلص

هدفت هذه الدراسة لتتبع الأشعار المنسوبة للرؤيا المنامية والمنسوبة لغير البشر بطريقٍ من الطرق، بغية الوقوف على دواعيها أغراضها وأسلوبها وما يمكن أن تفسره من حالة المجتمعات التي توجد فيها مثل هذه الأشعار. اتبعت الدراسة المنهج الوصفي، وذلك بجمع النماذج من المصادر والمراجع

Abstract

This study aimed to trace the poems attributed to dream visions and attributed to non-humans in a way, in order to identify their causes, purposes, style, and what they can explain about the statuses of the societies in which such poems exist. The study followed the descriptive approach, by collecting samples from different sources and references, analyzing them and

المختلفة وتحليلها والتعليق عليها. وتم التوصل إلى عدد من النتائج، أهمها: إن أنواع هذا الشعر تباينت بين هاتف يسمعه الناس ولا يرونه، أو رؤيا منامية، أو شخص مجهول ينشد شعراً ويختفي فجأة، إلى غير ذلك مما لا يمكن نسبته لشخص بعينه من البشر. تنوعت الأغراض التي جاء من أجلها هذ الشعر بين النعي، والإخبار بقرب الأجل، والتنبيه على خطر قادم، فهي في الغالب رسائل تنبيهية، وربما يكون لحضور الأمر المعين في العقل الباطن للشخص أثر في ذلك. تنوعت الأوزان الشعرية التي جاءت عليها هذه الأشعار وشملت البحور الخليلية الشائعة الاستعمال. إن هذا الشعرَ متناثر في مصادر متنوعة جداً، من بينها كتب الأدب والتاريخ والتراجم وغيرها.

commenting on them. A number of results were reached, the most important of which are described below. First, These types of poems varied between a call that people hear but do not see, or a dreaming vision, or an unknown person who recites poetry and suddenly disappears, and other things that cannot be attributed to a specific human being. The purposes for which this poetry came varied between obituaries, informing about the approaching death, and warning of an upcoming danger; so, they are mostly alert messages, and the presence of a specific matter in the person's subconscious mind may have an impact on that. The meters on which these poems were written varied and included the frequently used meters of Al-Khalil Al-Farahidi. this poetry attributed to non-humans is scattered in very diverse sources, including books of literature, history, biographies and others.

مقدمة:

حفلت طائفة واسعة من كتب التراث العربي بالكثير من أشعار المنامات والشعر المنسوب لغير الإنس، كالجنِّ وإبليس، وكالأشعار التي يسمعها الناس ولا يرون قائلها، ولا يعرفون مَن هو، وهذه الأشعار المنسوبة لغير الإنس كثيرة، ومختلفة الأغراض، وهي إما أن تكون في رؤيا في المنام، وإما أن يهتف بها هاتف يسمعه الناس ولا يرونه، وإما أن توجد في رقعة تأتي بها الرياح، إلى غير ذلك. ويريد الباحث هنا أن يتناول طرفاً من هذه الأشعار، مبيناً خصائصها وأغراضها وما يمكن أن تعكسه من ثقافة المجتمع الذي ظهرت فيه؛ وبذلك نستطيع تصوُّرَ حالة من حالات ذلك المجتمع، وهنا تكمن أهمية هذه الدراسة.

وإيمانُ بعض المجتمعات بهذه القضايا والمسائل التي هي أقرب للغيبيات أو التي تبعد عن عالم المشاهدة فيه إشارات لعقيدة المجتمع، وقد تكون فيها جذور ممتدة إلى الماضي الثقافي الذي يمتلئ بالخرافات والأساطير، وقد تكون لها صلة بمعتقدات دينية، وكذلك ربما تشكل هذه المسائل نواة لألوان من الأدب لم يحِن وقتها بعد، كل ذلك يجعل من دراسة هذه الأشعار حافزاً، يدفع لبحثها وسبر أغوارها. كما إن رواية هذه الأشعار وتناقلها تحتاج لمزيد من التنقيح والتثبُّت، ويفترض الباحث أن فيها كثيراً من النَّحْل، وأن هنالك من أنكرها وعدَّها تخرُّصاً بما لا يقبله عقل ولا نقل، لا سيما تلك الأخبار التي روتها الكتب عن أممٍ بادت في غابر التاريخ ولم تبقَ منها باقية.

وتسير الدراسة على خُطا المنهج الوصفي، حيث يتم اختيار النماذج المختلفة من مصادرها ودراستها والتعليق عليها للوصول إلى النتائج.

بعض الأشعار المنسوبة لغير الإنس ضاربة في القِدم، حولها الكثير من الأسئلة التي تحار في كيفية وصولها إلى زمان مَن أوردوها من مؤلفي كتب الأدب والتراث القديم.

من ذلك شعر ينسبونه لأبينا آدم عليه السلام، وفيه حوار شعري بينه وبين إبليس عليه لعنة الله، وذلك حينما قتل قابيل أخاه هابيل، فورد في بعض المصادر أنَّ آدم عليه السلام قال:

تَغَـيَّرَتِ الْبِـلادُ وَمَـنْ عَلَيْهَـا فَوَجْـهُ الأَرْضِ مُغْـبَرٌّ قَبِيحُ[1]
تَغَـيَّرَ كُلُّ ذِي طَعْـمٍ وَلَـوْنٍ وَقَلَّ بَشَاشَةُ الْوَجْهِ الصَّبِيحِ[2]

فَأَجَابَهُ إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ:

تَنَـحَّ عَـنِ الْبِـلادِ وَسَـاكِنِيهَا بَنى فِي الْخُـلْدِ ضَاقَ لَكَ الْفَسِـيحُ
وَكُنْـتَ بِهَـا وَزَوْجَـكَ فِي رَخَـاءٍ وَقَلْبَـكُ مِـنْ أَذَى الدُّنْيَا مُرِيحُ
فَمَـا انْفَكَّـتْ مُكَايَـدَتِي وَمَكْرِي إِلَى أَنْ فَاتَـكَ الثَّمَـنُ الرَّبِيـحُ
فَلَـوْلا رَحْمَـةُ الْجَبَّـارِ أَضْـحَى بِكَفِّـكَ مِنْ جنـان الخلد ريحُ

والذي دعا لإيراد هذه النماذج هو أن الطرف الذي قام بالردِّ هو من غير الإنس، هذا، وقد أوردت المصادر أيضاً أشعاراً تُنسب لعهد عادٍ وثمود[3]، وكل ذلك الشعر مما لا تثبت روايته، وكان ابن سلَّام الجمحي في بدايات القرن الثالث الهجري قد التفت إلى هذه القضية، وأنكر مثل هذه الروايات أشدَّ إنكار، وأسهب في بسط الأدلة العقلية والنقلية، من الآيات وغيرها، مما يؤكد انقطاع الرواية بين العرب الجاهليين وبين تلك الأمم البائدة، وذكر أنَّ إسماعيل بن إبراهيم هو أول من تكلم بالعربية، ونسي لسان أبيه، وقال ابن سلَّام عن هذا النوع من الشعر: « وليس بشعر وإنما هو كلامٌ مؤلفٌ

(١) انظر: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (المتوفى: ١٧٠هـ) جمهرة أشعار العرب، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ب ط، ب ت، ص ٣٠. شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ب. ط، ١٤٢٣ه، ج١٣، ص ٣٣. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا وآخر، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا طبعة، بلا تاريخ ج١، ص: ٢٢٤.

(٢) البيت مضبوط في المنتظم لابن الجوزي، ج١، ص ٢٢٤ على هذا النحو، وبهذا ففي الشعر إقواء، وقد ذكر أبو زيد بن أبي الخطاب أن (بشاشة) منون بالفتح على التمييز، ثم حذف التنوين لالتقاء الساكنين، وأصل التركيب: (وقلَّ الوجهُ الصبيحُ بشاشةً) وعلى هذا فـ (الوجه) فاعل، ولا إقواء ثَمَّ. انظر: جمهرة أشعار العرب، ص: ٣٠.

(٣) انظر: أبو زيد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب، ص: ٣٢، و المفضل بن سلمة بن عاصم: الفاخر، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٨٠ هـ، ص: ٨٣، و ابن عبد ربه: شهاب الدين أحمد بن محمد، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ه ج٧، ص: ٢٩. و الميداني: أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري: مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ج١، ص: ١٣١.

معقودٌ بقوافٍ»[1]، وقد أشار أبو العلاء المعري في رسالة الغفران إلى تكذيب من نسب هذا الشعر لآدم عليه السلام[2].

وممن توقف عند رواية هذا الشعر من المتأخرين ابن كثير المتوفى ٧٧٤ه، قال: «وهذا الشعر فيه نظر، وقد يكون آدم عليه السلام قال كلاماً يتحزَّن به بلغته، فألفه بعضهم إلى هذا، وفيه أقوال والله أعلم»[3] ومع هذا فقد وردت هذه الأبيات منسوبة لآدم في بعض الكتب مثل تاريخ الطبري[4].

ويرى الباحث أنَّ الراجح في شأن هذا الشعر هو ما ذهب إليه ابن سلَّام وغيره ممن دحضوا روايته؛ وذلك لِقوَّة أدلتهم، ووضوح حجتهم، أما الذين روَوه فإنَّهم حُملت إليهم هذه الأشعار، فقبلوها وتناقلوها دون أن يراجعوا أنفسم فيمن حملها ورواها منذ آلاف السنين.

وأوردت بعض المصادر أبياتاً من الشعر، ذكروا أنَّ الناس سمعوها يوم هاجرَ النبي صلى الله عليه وسلم، من صوت لم يروا قائله[5]، وقد أجابه حسان بن ثابت بأبيات منها قوله:

لَقَـد خَـابَ قَـوْمٌ غَابَ عَنْهُـمْ نَبِيُّهُـمُ وَقُـدِّسَ مَنْ يَسْرِي إِلَيْـهِ وَيَغْتَدِي [6]

(١) محمد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ج١، ص: ٨

(٢) أبو العلاء المعري، أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان:رسالة الغفران، مطبعة أمين هندية بالموسكي، مصر، صححها ووقف على طبعها: إبراهيم اليازجي، الطبعة: الأولى، ١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٧م، ص: ١٠٩

(٣) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ه ١٩٨٨م، ج١، ص: ١٠٦

(٤) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، تاريخ الرسل والملوك، دار التراث،الطبعة: الثانية، ١٣٨٧ هـ، ج١، ص: ١٤٥.

(٥) النهرواني: أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريرى (المتوفى: ٣٩٠هـ) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، ص ٢٧٠

(٦) الأبيات في ديوان حسان بن ثابت، شرح: عبدأ مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤ه/ ١٩٨٤م، ص: ٥٩

تَرَحَّـلَ عَـنْ قَـوْمٍ فَزَالَـتْ عُقُولُهُـمُ وَحَـلَّ عَلَى قَـوْمٍ بِنُـورٍ مُجَـدَّدِ
وَهَـلْ يَسْـتَوِي ضُـلالُ قَـوْمٍ تَسَـفَّهُوا عَـمًى وَهُـدَاةٌ يَهْتَـدُونَ بِمُهْتَـدِ؟

ومما ينسب لإبليس أن نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥هـ، رآه في المنام فسأله عن عدم سجوده لله، فقال إبليس:

مَـنْ لَمْ يكـن للوصولِ أهلاً فـكُلُّ إحسـانِه ذنـوبُ

جاء ذلك في بعض الكتب التاريخ، فذكره ابن الجوزي[١] وابن كثير[٢]، ولم تُجمع المصادر على نسبته لإبليس، بل نسبه الراغب الأصبهاني[٣] والبرقوقي[٤] للشبلي؛ لذلك فنسبته غير ثابتة.

ويلاحظ الباحث أن معظم الأغراض والمواقف التي روَوا فيها شعراً لغير الإنس تتعلق بالموت، وما يتصل به، من إخبار عن قرب الأجل، أو أن يرى أحد الناس رجلاً من الأموات فيسأله عما صنع الله به، فينشده شعراً، يبين حاله بعد موته، أو أن يسمع صوتاً، أو هاتفاً يخبره أو يشير إليه بموت أحد العظماء، ويمكن حصر هذه الأغراض والمواقف فيما يلي:

أ/ الإخبار بقرب الأجل:

والإخبار بالموت في الرؤيا - غالباً - لا يكون صريحاً، وإنما يأتي في إشارة لخلوِّ الدار ونحوه، فقد رُوِي أن الخليفة المنصور رأى في منامه في السنة التي مات فيها كأنَّ آتياً أتاه، فقال له:

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ج١٦، ص: ٣٠٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ١٧٣

(٣) أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ، ج١، ص ٥٥١

(٤) عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن سيد بن أحمد البرقوقي، الذخائر والعبقريات، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ج١، ص ١٧٦.

كأنِّي بهـذا القـصرِ قَـدْ بـادَ أهلُـه وعُـرِّى منـه أهلُـه ومنـازلُه[1]
وصـارَ رئيسُ القومِ مـن بعد بهجة إِلَى جَـدَثٍ يُبْـنَى عليـه جنـادلُه

وإن من المصادفات العجيبة أن ابنه الخليفة المهدي رأى قبل وفاته في المنام شيخاً أنشده هذين البيتين أنفسَهما وزاد عليهما قوله:

ولـم يبـقَ إلا ذكـرُه وحديثـه تنـادي عليـه بالعويـلِ حلائلُه[2]

وكذلك رأى القاضي عمر بن حماد بن يزيد المتوفى ٣٢٨هـ، قبل وفاته شخصاً في المنام يقول:

منـازلَ آلِ حمـادِ بـن زيـدٍ على أهليكِ والنعمِ السـلامُ[3]

فلما كان اليوم السابع من ذلك تُوفِّي.

ورأى إبراهيم بن دينار أبو حكيم النهرواني المتوفى سنة ٥٥٦هـ، رجلاً في المنام، وسط داره قائماً: فقال: من أنت؟ فقال الخضر. ثم قال:

تأهَّـبْ لـلذي لابـدَّ منـه مـن الموتِ الموكَّلِ بالعِبَـادِ[4]

ثم أخبره أنه بقي من عمره اثنتا عشرة سنة، فمات بعد أن قضاها.

وليست الأحلام والمنامات وحدها هي مصدر ذلك الشعر المنسوب لغير الإنس، فقد روي أن الخليفة المنصور كان قاصداً مكة ومعه الربيع، فنزل المنصور يقضي

(١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ ه، ج٢، ص٣٣٥ ـ

(٢) شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٢، ص ١١٨، (مصدر سابق)

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٣، ص:٣٩١. ومحمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ، ج٢، ص ٢٤٢

(٤) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، ج٣٨، ص ١٩٢

حاجته، فإذا الريح قد ألقت إليه رقعة فيها مكتوب:

أبـا جَعْفَـرٍ حانتْ وفاتُـك وانقضتْ سِـنُوْكَ وأمـر اللهِ لا بـدَّ واقـعُ[1]
أبـا جَعْفَـر هـلْ كاهـنٌ أو منجـمٌ لـك اليـوم عَـنْ حـرِّ المنيـةِ دافـعُ

وفي وصف الرقعة بأنها ألقتها إليه الريح إشارة إلى أن صاحب الشعر مجهول وربما هو ليس من البشر؛ ولتثبت القصة هذا الادعاء جاء فيها أن المنصور بعد أن قرأ الرقعة نادى: يا ربيع! تنعي إليَّ نفسي في رقعة؟ فقال الربيع: لا والله لا أعرف رقعة، ولا أدري ما هي. وقد توفى المنصور من وجهته تلك. ومن الواضح أنَّ مثل هذه الوقائع التي تنتشر في تلك المجتمعات لها صلة وثيقة بمعتقدات الناس وما يسيطر على عقلهم الباطن، ويرى الباحث أن انتشارها وتصديقها مما يرسِّخها في عندهم ويهيئ نفوسهم لتلقيها.

ب/ الإخبار بموت أحد الخلفاء أو العلماء:

كثيراً ما أوردت المصادر أشعاراً مفادها أن يرى النائم أو يسمع هاتفاً ينشده شعراً يدلُّ على وفاة أحد العظماء أو قرب وفاته، ومن ذلك ما ذكروه عن رجل يدعى محمد بن عاصم المغافري أنه رأى في المنام قائلاً يقول له: يا محمد:

ذَهَـبَ الذيـن يُقال عنـد فراقِهم ليـتَ الديـارَ بأهلِهـا تتصـدَّعُ[2]

فأوله بموت أشهب بن عبد العزيز، وهو من فقهاء مصر، فكان كذلك.

كذلك رأى عمرو بن شيبان الحِلِّيُّ أتياً أتاه في المنام فقال له:

يَـا نائـمَ الليـلِ في أقطـارِ جثمـاني أفـضْ دموعَك يَـا عمرو بْن شـيبانِ
أمَا تـرى الفتيةَ الأرجـاسَ مَا فعلتْ بالهاشـميِّ وبالفتـحِ بْـن خَاقـانِ
وافى إِلَى الله مظلومَـاً فضـجَّ لَهُ أهـلُ السـموات مـن مثـنى ووُحدانِ

(١) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ج ٢، ص ٣٣٥ وابن الجوزي، المنتظم: ج٨، ص: ٢٢١

(٢) لم أعثر على قائله في جميع الكتب التي وقفتُ عليها، وقد انفرد بروايته مصحوباً بخبره ابنُ الجوزي في كتابه المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ١٠، ص ١٣١.

وسوف تأتيكم أخرى مسومةٌ توقعوها لها شأن من الشانِ
فابكوا عَلَى جعفر وابكوا خليفتكم فقد بكاه جميعُ الإنسِ والجانِ

فلما أصبح فإذا الناس يقولون إن الخليفة جعفر المتوكل قد قتل في هذه الليلة.(١)

ومن تلك الأشعار التي لم يعرف قائلها ذلك الشعر الذي هتف به هاتف سمعه أبو الحسن بن الشيبة العلوي يوم مات الأمير أبو الحسن معز الدولة سنة ٣٥٦هـ، فقد سمِع بداره في دجلة صوت هاتفٍ يقول:

لمَّا بلغتَ أبا الحسين مرادَ نفسك في الطلبْ(٢)
وأمنتَ من حدثِ الليالي واحتجبتَ عن النُّوَبْ
مُدَّتْ إليك يدُ الردى فأُخذتَ من بيتِ الذهبْ

والملاحظ أن هذه الأشعار التي تحمل نعياً، أو تخبر بقرب موت أحد الناس إنما تتصل بموت العظماء من خلفاء وأمراء وعلماء. وبالنظر إلى الناحية الفنية لهذه النماذج لا يبدو هنالك ما يميزها من ناحية الموسيقا والأوزان وما يتصل بالقوافي وقوانينها، وهذا يؤكد صلتها بروح المجتمع وثقافته وفنونه، فهي لا تختلف في أسلوبها عن الشعر العربي بصفة عامة.

ج/ أن يُخْبِرَ الميِّتُ عن حاله بعد موته:

ذكروا أن أبا عامر الواعظَ وعظَ رجلاً وجاريةً، يقال أنهما من ولد الحسين بن علي ابن أبي طالب؛ فماتا متأثرَين بوعظه، فحزن على ذلك حزناً شديداً، حتى رآهما في المنام عليهما حلتان خضراوان، فقال مرحباً بكما وسهلاً، فما زلت حذراً مما وعظتكما به، ماذا صنع الله بكما، فقال الشيخ:

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠/ ص ٣٨٧

(٢) محمد بن عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد، أبو الحسن الهمذاني المعروف بالمقدسي (المتوفى: ٥٢١هـ) تكملة تاريخ الطبري، تحقيق: ألبرت يوسف كنعان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٥٨م، ص ١٩٣

أنـت شريكـي فِي الَّذِي نلتُـه مستأهلاً ذاك يـا أبـا عامرْ[1]
وكلُّ مــن أيقــظَ ذا غفلــة فنصـفُ مَـا يُعطـاه للآمـرْ
مــن رد عبــداً آبقــاً مذنبــاً كَانَ كمـن قَـدْ راقـب القاهـرْ
واجتمعــا فِي دارِ عــدلٍ وفي جــوارِ ربٍّ سـيِّدٍ غافــرْ

ورأى دلف بن أبي دلف في المنام بعد موت أبيه أن آتياً أتاه، فأخذه إلى دارٍ خربةٍ، في حيطانها أثر النار، وفي أرضها أثر الرماد، وإذا بأبيه عريان واضعاً رأسَه بين ركبتيه، فقال له كالمستفهم: دلف؟ فقال: نعم أصلح الله الأمير، فأنشد يقول:

أبلغـنْ أهلَنـا ولا تخـفِ عنهـم مَـا لقينـا فِي الـبرزخ الخنـاقِ
قـد سُـئلنا عن كل مَا قـدْ فعلنا فارحمـوا وحشـتي ومَا قـد ألاقي

ثم قال له: أفهمت؟ قال: نعم، فأنشأ يقول:

فلــو كُنَّــا إذا مِتنــا تُركنــا لـكانَ المـوتُ راحـةَ كلِّ حيّ[2]
ولكنــا إذا مِتنــا بُعثنــا ونُسـأل بعـدَ ذا عـن كلِّ شيّ

وهذان البيتان منسوبان كذلك لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه[3].

كذلك أوردت بعض المصادر أن أبا الفضل بن الخزان رأى في منامه الشاعرَ أبا عبد الله الحسين بن الحجاج المتوفى ٣٩١هـ بعد موته، فقال: ما صنع الله بك؟ قال:

أفسـدَ حسـنَ مذهـبي في الشعر سـوءُ المذهبِ[4]
وحمـلَ الجِـدَّ على ظهـرِ حِصـانِ اللعـبِ

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ج٨، ص: ١٢١. وفي عجز البيت الأول خلل في الوزن يستقيم بحذف ياء النداء (مستأهلا ذاك أبـا عامرِ).

(٢) أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ) تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م، ج١٤، ص ٤٠٧

(٣) علي بن أبي طالب، ديوانه، ص: ٢٢٠.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بلا ط، ١٩٠٠م، ج٢، ص ١٧١.

لـم يـرضَ مـولاي عَلَيْ بسـببِّ أصحـابِ النَّـبِي
وقـال لي ويلـك يـا أحمـقُ لِـمْ لَـمْ تَتُـبِ
مـن بُغْـضِ قومٍ مـن رَجَا ولاءَهـم لَـمْ يَخِـبِ
رُمْـتَ الـرِّضى جَهلاً بما أصـلاك نـارَ اللهَـبِ

ونُقل عن بعض العدول أن رجلاً رأى في المنام قاضيَ القضاة عليَّ بن الحسين الزينبي المتوفى ٥٤٣هـ بعد موته، فقال: ما فعل الله بك؟ قال غفر لي ثم أنشد:

وإنَّ أمـرءاً ينجو مـن النَّارِ بعدما تـزوَّدَ مـن أعمالِهـا لَسـعيدُ[١]

د/ ما يسمع في الرثاء والنعي:

من ذلك ما ذكروه من أن الناس مكثوا زماناً ومن جاز من قريش في السنَّ أربعين سنة عُمِّر، فجازها صبيرة بن سعيد، بيسيرٍ، ثم مات فجأة، ففزع لذلك الناس، فناحت عليه الجنُّ فقالت:

مَـنْ يأمـنُ الحدثـانِ بعْـ ـدَ صبـيرةَ القـرشيِّ ماتـا[٢]
عجلـتْ مَنِيَّتُـه المشـيـ ـبَ فـكان منيتـه افتلاتـا

وممن نَعَتْهُ الجنُّ سعد بن عبادة الأنصاري فإنه مات بحَوْرَانَ، فسمع غلمان بالمدينة صوتاً خارجاً من بئر يقول:

نحـنُ قتلنـا سـيِّدَ الْـ ـخزرجِ سعدَ بنَ عبادَهْ[٣]
ورمينـاه بسـهميـ ـن فلـم تخـطِ فـؤادَه

فهذا يعدُّ نعياً وإخباراً بموته؛ لأنه مات في حوران، والصوت سمع في المدينة،

(١) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ج٢، ص ٣٩٨. ونسبه المبرِّد لرجل يدعى يزيد بن الصقيل العقيلي، انظر: محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس المبرد (المتوفى: ٢٨٥هـ) الكامل في اللغة والأدب، تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، ج١، ص: ٨٨.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم: ج٦، ص: ٣٢٦.

(٣) ابن قتيبة الدينوري، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢ م، ص ٢٥٩

ويغلب أن يكون هذا الشعر صدر عن الجنِّ، لأن سعداً كان سبب موته أنه جلس يبول في نفق، فمات من ساعته، ووجدوه قد اخضرَّ جلده.

ومن المراثي المنسوبة لغير الإنس أن امرأة جاءت على حمارٍ فارهٍ، فوقفت على رأس جعفر بن يحيى وقد صلبه الرشيد، فقالت بلسان فصيح: واللهِ لئن صرت اليوم آية فلقد كنت في المكارم غاية، ثم أنشدت تقول:

لما رأيتُ السيفَ خالطَ جعفرا ... ونادى منادٍ للخليفةِ في يحيى
بكيتُ على الدنيا وأيقنتُ أنَّما ... قُصَارَى الفتى يوماً مفارقة الدنيا
وما هي إلا دولةٌ بعد دولةٍ ... تُخَوِّل ذا نُعمى وتُعقِبُ ذا بلوى
إذا أنزلت هذا منازلَ رفعةٍ ... من المُلْكِ حطَّتْ ذا إلى الغايةِ القصوى

ثم إنها حركت حمارها وكأنها كانت ريحاً لم يعرف لها أثر، وهذه الرواية تشير إلى أنّ هذه المرأة التي رثت جعفر بن يحيى لم تكن من البشر.[1] وهذا الشعر منسوب كذلك لدعبل بن علي الخزاعي، ومثبت في ديوانه[2].

هـ/ التخليص من الهلاك أو الضلال:

إن الأشعار والأخبار التي رواها ابن الجوزي في هذا الشأن عجيبة كل العجب، وهي تشير إلى رسائل ربانية ينقذ الله بها بعض عباده من التهلكة، وقد تكون هذه التهلكة ضلالاً وعمًى عن الحق، وعدم انتباه له ولموضعه، فقد روى أن سواد بن قارب جاءه جنيٌّ في النوم ثلاث ليالٍ ينشده ثلاثة أبياتٍ في كل ليلة، تحثه على السير للنبي صلى الله عليه وسلم، فذهب وأسلم.[3]

وقد تكون الرؤيا تنبيه لشرٍّ محدق بالنائم، يكاد يهلكه، فيسمع في منامه شعراً ينقذه من هذا الهلاك ويخلصه منه. من ذلك أن الخليفة المأمون كان يوماً نائماً فانتبه

(١) النهرواني، الجليس الصالح الكافي، ص ٣٩٧، وابن الجوزي، المنتظم: ج٩، ص: ١٣٧

(٢) دعبل بن علي الخزاعي، ديوانه، صنعه: عبد الكريم الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط٢، ص ٤٣٢.

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ج٢، ص: ٣٤٤

فأمر من معه أن ينظر عند رجليه، فنظروا فلم يجدوا شيئاً، ثم نظروا تحت فراشه فوجدوا حيةً بطوله فقتلوها، فقال بعضهم انضاف إلى كمال أمير المؤمنين علم الغيب. فقال: معاذ الله، ولكن هتف بي هاتف الساعة وأنا نائم:

يـا راقـدَ الليـلِ انتبهْ إنَّ الخطوبَ لها سُرَى
ثقـةُ الفـتى بزمانِـهِ ثقـةٌ مُحللَّـةُ العـرَى

فانتبهت، فعلمت أن قد حدث أمر إما قريب وإما بعيد، فتأملت ما قرب فكان ما رأيتم.[1]

وأحياناً يكون الشعر الذي يحفظ عن الرؤيا بشرى للرائي بفرج عن ضيق أو ذهاب كرب ومصيبة، فقد رُوِيَ عن يعقوب بن داؤود بن طهمان المتوفى سنة ١٨٢هـ أنه كان مسجوناً في بئر خمسة عشر سنة فأتاه آتٍ في منامه فقال له:

حَـنَى على يوسـفٍ رَبٌّ فأخرجـه مـن قَعْـرِ جُبٍّ وبيـتٍ حـوله غَمَمُ

فمكث بعد ذلك حولاً كاملاً ثم أتاه ذلك الآتي فقال له:

عسى الكـربُ الذي أمسـيتُ فيه يكـونُ وراءه فـرجٌ قريـبُ
فيأمـنُ خائـفٌ ويفـكُّ عانٍ ويـأتي أهلَـه النـائي الغريـبُ

فلما أصبح نودي فأخرج من السجن وكان ذلك في خلافة الرشيد، وهو محبوس من خلافة المهدي.[2] وهنا تبرز طايفة من الاستفهامات حول صلة هذه الرؤى المنامية بما يسمية علماء النفس الحاسة السادسة أو القوى الكامنة في النفس البشرية، وليس هذا موضع التوسع في هذه المسائل.

و/ ما سمع في الوعظ عن غير الإنس:

من ذلك أن أبا مسلم إبراهيم بن عبد الله البصري دخل يوماً حماماً ليس فيه أحد، فسمع صوتاً يقول: أبو مسلم أسلم تسلم، ثم أنشأ يقول:

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ج١٠، ص: ٥٧.
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧، ص ٢٥

لـك الحمـدُ إمَّـا على نعمـةٍ وإمَّـا على نقمـةٍ تدفـعُ[1]
تشـاءُ فتفعـلُ مـا شـئتهُ وتسـمعُ مـن حيـثُ لا يسـمعُ

فخرج فزعاً، فسأله صاحب الحمام: هل سمعت شيئاً؟ فأخبره بما جرى، فقال: هذا جنيٌّ يتراءى لنا في كل حين وينشد الشعر، ومن شعره:

أيُّهـا المذنـبُ المفـرِّطُ جهـلا كـمْ تمـادَى وتركبُ الذنـبَ جهلا[2]
كـمْ وكـمْ تُسـخِطُ الجليـلَ بفعـلٍ سـمجٍ وهـو يحسـنُ الصنـعَ فعـلا
كيـف تَهْـدَا جفـونُ مـن ليـس يدري أَرَضِي عنـه مـن على العـرشِ أم لا

ومن شعر المواعظ الذي ينسب لغير الإنس ما أُثِرَ عن سعد الله ابن نصر الدين بن سعيد الدجاجي المتوفى سنة ٥٦٤هـ، أنه قال: كنت خائفاً من الخليفة لحادثٍ، فاختفيتُ، فرأيت في المنام كأني في غرفة أكتب شيئاً فجاء رجل، فوقف ورائي وقال: اكتب ما أملي عليك وأنشد:

ادفـعْ بصـبرك حـادثَ الأيَّـامِ وتَـرَجَّ لطـفَ الواحـدِ العـلامِ[3]
لا تأيسـنَّ وأنْ تضايـقَ كربُهـا ورمـاك ريـبُ صروفِهـا بسـهامِ
فلـه تعـالى بـين ذلـك فرجـةٌ تخـفى على الأبصـار والأوهـامِ
كـمْ مَـن نَجَا مـن بين أطـرافِ القَنَا وفريسـةٌ سـلمتْ مـن الـضِّرغامِ

فهذه الأشعار المتقدمة على كثرتها فإنها قد رويت عن غير البشر، حُفظت عن رؤيا منامية، أو سُمعت عن هاتف لم يره الناس، إلى غير ذلك من أنواعها. ويرى الباحث أن من أبرز دواعي انتشارها الثقافة الدينية والمعرفية للمجتمع العربي في فترة من فترات تاريخها والتي تكاد تنحصر في العصور المتقدمة منذ فجر الإسلام وحتى نهايات العصر العباسي.

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ج١٣، ص: ٣٦.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم: ج١٣، ص: ٣٦.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ٣٢١

الخاتمة:

كانت تلك سياحة مع أشعارٍ غصَّت بها كتب الأدب والتاريخ والتراجم ومصادر التراث العربي والإسلامي بصفة عامة، وقف الباحث من خلالها على طائفة من هذا النوع من الشعر، وبالطبع فإنه لا يدَّعي حصره واستيفاء جميع نماذجه؛ لتناثره في مصادر متفرقة متنوعة، ولكن حسب هذه الدراسة أنها وقفت على عددٍ من النماذج وعالجتها بالتعليق عليها وتحليل بعضها، مما أوصل إلى نتائج، يمكن إيرادها على النحو التالي:

- إن أنواع هذا الشعر تباينت بين هاتف يسمعه الناس ولا يرونه، أو رؤيا منامية، أو شخص مجهول ينشد شعراً ويختفي فجأة، إلى غير ذلك مما لا يمكن نسبته لشخص بعينه من البشر.
- تنوعت الأغراض التي جاء من أجلها هذ الشعر بين النعي، والإخبار بقرب الأجل، والتنبيه على خطر قادم، فهي في الغالب رسائل تنبيهية، وربما يكون لحضور الأمر المعين في العقل الباطن للشخص أثر في ذلك.
- تنوعت الأوزان الشعرية التي جاءت عليها هذه الأشعار وشملت البحور الخليلية الكثيرة الاستعمال، كالطويل والوافر والكامل والرجز والمديد والبسيط والخفيف والمتقارب، في حين خلت من البحور الشديدة الازدواج والوعورة في أوزانها، كالمنسرح والسريع والمضارع والمقتضب.
- لم توجد فيها قصائد مطولة، فأكثر عدد جاء في ستة أبيات، وربما يعود السبب في ذلك إلى أنها رسائل تأتي لغرض محدد فهي موجزة على مقدار الرسالة التي تحملها.
- نُسبَ بعض هذه الأشعار – بجانب نسبته لغير الإنس – إلى أحد الشعراء، وهو مثبت في شعر، وهذا يعود لاختلاف الروايات وعدم القطع ببعضها دون بعض.
- اتسم هذا الشعر برصانة أسلوبة وجزالة ألفاظه وسلامة أوزانه.
- إن هذا الشعر المنسوب لغير الإنس متناثر في مصادر متنوعة جداً، من بينها كتب الأدب والتاريخ والتراجم وغيرها.

المصادر والمراجع:

١. البرقوقي: عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن سيد بن أحمد، الذخائر والعبقريات، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.

٢. ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا وآخر، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا طبعة، بلا تاريخ.

٣. حسان بن ثابت، ديوانه، شرح: عبدأ مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤ه/ ١٩٨٤م.

٤. الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (المتوفى: ٤٦٣ه) تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه - ٢٠٠٢ م.

٥. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بلا ط، ١٩٠٠م.

٦. دعبل بن علي الخزاعي، ديوانه، صنعه: عبد الكريم الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط٢.

٧. الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (المتوفى: ٧٤٨ه) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.

٨. أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (المتوفى: ١٧٠ه) جمهرة أشعار العرب، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ب ط، ب ت.

٩. شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ب. ط، ١٤٢٣هـ.

١٠. الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، تاريخ الرسل والملوك، دار التراث،الطبعة: الثانية، ١٣٨٧هـ.

١١. ابن عبد ربه: شهاب الدين أحمد بن محمد، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٢. أبو العلاء المعري، أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان:رسالة الغفران، مطبعة أمين هندية بالموسكي، مصر، صححها ووقف على طبعها: إبراهيم اليازجي، الطبعة: الأولى، ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م.

١٣. أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢ه) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

١٤. ابن قتيبة الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم (المتوفى: ٢٧٦ه)، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.
١٥. ابن قتيبة الدينوري، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.
١٦. محمد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.
١٧. محمد بن عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد، أبو الحسن الهمذاني المعروف بالمقدسي (المتوفى: ٥٢١ه) تكملة تاريخ الطبري، تحقيق: ألبرت يوسف كنعان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٥٨م.
١٨. محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي (المتوفى: ٨٠٨ه)، حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ ه
١٩. المفضل بن سلمة بن عاصم: الفاخر، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٨٣٠هـ.
٢٠. الميداني: أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري: مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.
٢١. النهرواني: أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريرى (المتوفى: ٣٩٠ه) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.